علو الهِمَّة في التَّفَكُّر

عبادة التفكُّر ومنزلتها في الإسلام :

مِن الفوارق الهامَّة التِي تُمَيِّزُ المؤمنَ عن غيرِه فِي هذه الحياة أنَّ المؤمن ينظرُ إلى كلِّ حركةٍ وسَكَنةٍ تقعُ حولَه فِي هذا العالَمِ بعينِ التَّفكُّرِ والاعتبار؛ وقد خَلَق اللهُ تعالَى هذا الكونَ العظيمَ -بِما فيه من مَخلوقاتٍ- دَلالةً على وحدانيَّته وعظمتِه وتفرُّدِه بالجلالِ والكمال؛ وطَلَب سبحانَه من عبادِه أن يتفكَّروا ويتأمَّلوا فِي هذه المخلوقات التي تُحيط بهم من كلِّ جانب؛ وهذا التفكُّرُ ليس مقصودًا لذاته؛ إنَّما المرادُ منه أنْ يتعلَّقَ القلبُ بربِّ العالَمين، ويعرفَه، ويُحبَّه، ويُفرِدَه بالوحدانيَّةِ والذُّلِّ والخُضوع والعبادةِ [(١)]، فلا يَصرفُ لغيرِه منَ المَخلوقاتِ - في هذا الكونِ الفسيحِ الرَّحيب- أيَّ نوعٍ من أنواع العبادة؛ حتَّى يكونَ - سبحانه- هو كلُّ شيءٍ في حياة عبدِه [(٢)].

والتَّفكرُ معناه: تكرارُ تأمُّلِ القلب في الشيءِ مرَّاتٍ ومرَّات، حتَّى يتعرَّف العبدُ على خباياه وأسراره -قَدْر طاقته- [(٣)].

---

(١) وهذا الأمر يسري على كل ما نصبه الربُّ العظيمُ ليعرفه عبادُه.. ولذا بيَّن أهل العلم أن العلوم والاكتشافات العلمية التي تظهر يومًا بعد يوم إذا لم تقرب العباد لربهم فقد ضاعت منها الثمرة العظمى وصارت حُجةً على أصحابها يوم الدين.. انظر: «العقيدة في الله» للشيخ الأشقر، وفي «ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب (١/ ٥٤٥).

(٢) ومن أعظم ما يُحبِّبُ العبدَ إلى ربه، ويُعلِّقُ قلبَه به أمران: تدبر آياته المقروءة.. والتأمل في آياته المرئية.. وأنصح بقراءة الكتاب الجميل الرقيق «موارد الظمآن في محبة الرحمن».

(٣) مستفاد معناه من «تفسير القرطبي» (٤/ ٣٢٢- ط: دار الحديث).. وفيه أيضًا (٤/ ٣٢٣) خلاف الفقهاء والصوفية حول التفكر والصلاة أيهما أفضل؟ فقال =

□وقال ابن القيم : «الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماسًا له»[١].

□ وقال: «الفكرة هي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملًا، ولمَّا يهتدِ إلى تفصيله وطريق الوصول إليه»[٢].

وثمرة التفكُّر: اليقين، لا سيَّما مع كثرة الدلائل وتنوُّعِها.

وقد أخبرنا رب العالمين أنه وضع الآيات المتنوعة -المقروءة والمرئية- في هذه الحياة القصيرة ليتفكر فيها العباد:

* فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [البقرة].

□ قال الحسن البصري: «هي والله لمن تفكَّر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء»[٣].

* وقال جل وعلا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

* وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص].

□ قال الحسن البصري: «والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم يقول: قرأت القرآن، ما يُرَى عليه القرآن في

الصوفية: التفكر، وقال الفقهاء: الصلاة أفضل.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٤٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٣).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٤).

خُلُقٍ ولا عمل»[١].

دعوة القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة إلى التفكُّر:

قد تنوَّعت أساليب القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهَّرة في بيان أهمية التفكر وضرورته، كسبيل هام جدًّا من سُبل الإيمان بالإله الواحد الأحد لا شريك له، والاستعداد للدار الآخرة وإليكم أبرز الأساليب القرآنية والنبويَّة الداعية إلى التفكُّر:

أوَّلاً: الدعوة الهادئة للتأمّل في آيات الكون:

لقد تكاثرت دعوة الله تبارك وتعالى للكافرين والمنافقين أن يتفكروا في الآيات المبثوثة في الكون -عاليه وسافله-، لعل هذا التفكر يأخذ بأيديهم بعد -رحمة الله تعالى- إلى الإقرار والانصياع لعبودية فاطرهم الأوحد، ونبذ ما سواه ممن لا ينفع ولا يضر.

* قال تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١].

انظرُوا، وتأمَّلوا، واعتبِروا.. لعلكم تعقِلون وتتَّقون وتعلَمون لِماذا خُلقتم؟، وما هو واجبُكم تِجاهَ ربِّكم؟ وما هو المقصود من إيجادكم؟.

◻ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السماوات من كواكب نيرات، وثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر؛ حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٨٧).

وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مذلل للسالكين يحمل سفهم ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلَّا هو ولا رب سواه»[1].

□ «إن النظر بالقلب المفتوح والعين المُبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام، وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه والإبداع الذي يشهد به والإعجاز الذي يدل على البارئ الواحد القدير، والنظر إلى ما خلق الله من شيءٍ -وكم في ملكوت السماوات والأرض من شيء- يدهش القلب ويحير الفكر، ويلجئ العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله، وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهور»[2].

□ «والنظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات، وزاد من الاستجابات والتأثرات، وزاد من سعة الشعور بالوجود، وزاد من التعاطف مع هذا الوجود، وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله، وبجلال الله، وبتدبير الله، وبسلطان الله، وبحكمة الله، وبعلم الله»[3].

* وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٥).

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٤٠٥).

(٣) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٨٢٢).

مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ ﴾ [سبأ: ٤٦].

إنَّها دعوة للتأمل والاتعاظ بأن يقوم العبد وحده -أو بمعاونة من يستشعر فيه العدل والإنصاف (١) - ليتأمل الجميع في بديع صنع الله تعالى، ليدَّبَّروا آياته، ويتعلقوا ما جاءهم به محمد ﷺ، ويزنوه على ميزان العقل السوي والفطرة النظيفة؛ وإذا لم تكابرهم نفوسهم، ولم يطمسوا على بصائرهم، فسوف يوقنون بإلههم ويخضعون لجلاله ويتبعون شريعته بنفس راضية مطمئنة.. وليس بعد هذا إلَّا السعادة والفوز العظيم.

* وقال جل جلاله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

إن الإله القدير العظيم الذي له كل هذا الملك بلا شريك ولا منازع هو الذي خلق أعظم آيتين في حياتكم لا تستطيعون إنكارهُما -الموت والحياة-، خلقهما ليختبركم ويرى أعمالكم.. فمن كفر وضل عاقبه بعزته.. ومن آمن وخضع عاملة بعفوه ومغفرته.

إنه الملك العظيم الذي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، محكمة الصنع والإتقان، وبث فيها الدلائل الباهرات والآيات العجيبات النيرات التي تنطق كلها بوحدانية باريها ﷻ؛ وأنت -أيها الإنسان- لا يمكن أن ترى تناقضًا أو اضطرابًا في هذا الخلق البديع، ولك أن تكرر النظر مرات

---

(١) ولابد أن يكون الرفيق عاقلاً منصفًا وإلا لم تنفع الصحبة.

بعد مرات، هل ترى في تلك السماوات العظيمة من شروخ أو تصدعات تدل على الخلل والضعف وقرب الانهيار؟! أعد النظر وكرر ثم كرر، فإنك في النهاية تبوء بالفشل أن ترى ذرة خلل أو نقص أو وهن في هذه الآيات النيرات.

تأمل -أيها الإنسان- في هذا كله وتفكر، لتعرف خالقك وفاطرك، فإنك من دون هذه المعرفة لا تساوي أي شيء.

* وقال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر].

تأملوا وتدبروا في سنن الله تعالى في الحياة، لعلكم تفقهون.

* وقال سبحانه: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾ [آل عمران].

* وقال ﷻ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام].

* وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر].

إن إلغاء مسلمات العقل ليس في صالح الإنسان، وإن التعامي والتغابي عن سنن الله تعالى في الحياة وأفعاله مع الطائعين والحائدين لن يعود بمنفعة أو مكسب للعبد، فالعقل خلق لينظر ويعتبر ويتأمل ويقيس الأمور بمقاييس سديدة منصفة؛ ليرى نهايته المتوقعة من خلال منهجة في الحياة.. وهذه النهاية تتراءى أمام ناظريه من أشبابه وأمثاله الذين سبقوه إلى الآخرة.. فإنهم ما بين مؤمن وكافر.. وقد كشفت الأيام المتعاقبة للناس جميعًا سنة الله تعالى التي لا تتخلف في إكرام المطيعين وإهانة

المستكبرين المعرضين.

فليتأمل العبد وليعتبر إذن بالسالفين؛ فعما قريب سيكون مع أحد الفريقين لا محالة، وسوف يمسي ذكرى من الذكريات.

فهذا أسلوبٌ من الحوار الهادئ والدعوة المتريثة مع كل معرض عن مولاه آبٍ رشدَه وهداه، إنها دعوة للتفكر في هذه الحياة ونهايتها، والمصير المنتظر لأهلها -على اختلاف مشاربهم ومناهجهم وتوجهاتهم-، دعوة تفتح مغاليق العقول، وتبعثها بإذن الله من سباتها العميق.

ثانيًا: مدح المتفكّرين وذم الغافلين المتغافلين:

* قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وهنا يَذكرُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ ما خَلَقه من مَخلوقاتٍ عظيماتٍ في الأرض والسَّماوات -وخاصَّةً اختلافُ أحوالِ الليلِ والنَّهار-، كلُّ هذا يَعتبرُ ويتَّعظُ به أولُو العقولِ الصحيحةِ التي لَم تَعْمَ ولَم تتلوَّثْ بلَوْثات الكُفر والإعراضِ عن خالِقها جلَّ وعلا.. إنَّهم هؤلاء الذين لا يَفترُون عن ذِكرِ الله بقلوبِهم وألسِنتِهم وأبدانِهم في كافَّةِ أحوالِهم -قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبِهم-، وهم فِي كلِّ هذا يتأمَّلون ويتفكَّرون في الكون الجليلِ بكلِّ ما فيه من آياتٍ وعِبَرٍ تَبعثُ في القلب الخشيةَ والخشوعَ والمَحبَّةَ لِخالقه العظيمِ تبارك وتعالَى، وهنا تدمعُ العين ويذلُّ اللسانُ قائلًا: ﴿رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾، بل خَلقتَه بالحقِّ وللحقِّ [١].. وأنت – ربَّنا- كما خَلقتَ هذا الكون المترامِيَ الأطراف بقُدرتِك العظيمة، فأنت قادرٌ كذلك على إدخالِ مَن تشاءُ برحْمتِك إلَى الجنَّة، وإدخالِ مَن تشاءُ بعَدلِك إلَى النار، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

فتأمَّلوا كيف وصلَ بِهِما لتأمُّلُ والتدبُّرُ في آياتِ ربِّهم في هذه الحياة إلى الدَّار الآخرة، فانتقَلوا في لَمحِ البصر إلى دارِا لخلود؛ لأنَّ هذا هو غايةُ التفكُّرِ -أيُّها الأحبَّة-، أن يَعرفَ العبادُ حقيقةَ وجودِهم، ولِماذا خُلقوا، وما هو مصيرُهمُ الذي يَنتظرُهم.. فإذا طهُرت قلوبُهم وسَمَتْ أرواحُهم ازدادَ تفكُّرُهم، وغاصُوا في آياتِ ربِّهم غَوصًا، فانبعثَ منها الرَّهبةُ والرَّغبة منه عَزَّوَجَلَّ، فنَحَّتِ الراحةَ يسارًا، وشَحذت هِمَمَها لعبادةِ خالقها تحقيقًا للمراد الأساسِ من وُجودِها.

«وأولو الألباب -أولو الإدراك الصحيح -يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقولهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه.

ومشهد السماوات والأرض ومشهد اختلاف الليل والنهار لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح له العيون أول مرة، لو استنقذنا حِسَّنا من همود الإلْف وخمود التكرار لارتعشن له

(١) انظر عن معنى «الحق» كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» للعلامة عبد الرحمن الميداني (ص٤٥).

رؤانا، ولاهتزَّ له مشاعرنا [(١)].

إن القرآن يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته وبين التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة، ويجعله جانبًا من مشهد الذكر، فيوحي -بهذا الجمع- بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أن التفكر في خلق الله والتدبر في كتاب الكون المفتوح، وتتبع يد الله وهي تحرك هذا الكون وتقلب صفحات هذا الكتاب: هو عبادة لله من صميم العبادة، وذكر لله من صميم الذكر.

الحقيقة الثانية: أن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلَّا للقلوب الذاكرة العابدة، وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم وهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهي الموصل إلى النجاة والخير والصلاح.

إنهما أمران متلازمان تعرضهما هذه الصورة التي يرسمها القرآن لأولِي الألباب في لحظة الاستقبال والاستجابة والاتصال.

إنها لحظة تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتفتح الإدراك،

---

(١) ذكر الأستاذ سيد قطب هنا أن هذا النظام البديع لابدَّ أن وراءه «عقلاً» يدبِّر.. وهذا خطأ منه -عفا الله عنه- ، فإنه لا يحلّ أن يوصف الله تعالى بالعقل المدبِّر.. إنما هذا وصف الفلسفة المستمدة من كُتب اليونان والرومان، فانتبه، آتاك الله رشدك.

واستعداده للتلقي كما تمثل الاستجابة والتأثر والانطباع.

إنها لحظة العبادة وهي بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال، فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ملهمًا للحقيقة الكامنة فيها، وإدراك أنها لمتخلق عبثًا ولا باطلًا»[١].

□ ومن اللطائف في هذه الآيات الكريمات أن الله تعالى لم يجعل عذرًا لأحد في ترك التفكر في آياته، فالتفكر شامل لكل حالات العبد من القيام والقعود والرقود؛ لأنه عبادة قلب، فيمكن للعبد أن يغيب في أعماق الأرض أو يغوص في أغوار البحار أو ينفذ في أقطار السماوات وهو راقد على فراشه، حيث يسبح بفكره في هذه الأجواء العجيبة المتنوعة وما فيها من ملايين الآيات التي تهتف جميعًا بوحدانية الخالق وتعظيمه وتقديسه.

□ قال الإمام قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾: «هذه حالاتك كلها يا ابن آدم، اذكر الله وأنت قائم، فإن لم تستطع فاذكره جالسًا، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك.. يُسرٌ من الله وتخفيف».

□ وقال الإمام مجاهد: «لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا»[٢].

□ وقال العلامة القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر تعالى ثلاث هيئات، لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره، فكأنها تحصر زمانه.. ومن هذا المعنَى قول

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٥٤٤، ٥٤٦) باختصار.

(٢) «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ١٧٩ - ط: دار هجر).



عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»[(١)][(٢)].

□ قال الإمام الرازي -رحمه الله وعفا عنه-: «دلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس.. ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، ولما كان الأمر كذلك لا جرم أَمَر في هذه الآية بالفكر في خلق السماوات والأرض؛ لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم، وكيف لا نقول ذلك؟! ولو أن الإنسان نظر إلى ورقة صغيرة من أوراق شجرة رأى في تلك الورقة عرقًا واحدًا ممتدًا في وسطها، ثم يتشعب من ذلك العرق عروق كثيرة إلى الجانبين، ثم يتشعب منها عروق دقيقة، ولا يزال يتشعب من كل عرق عروق أخر حتى تصير في الدقة بحيث لا يراها البصر، وعند ذلك يعلم أن للخالق في تدبير تلك الورقة على هذه الخلقة حكمًا بالغة وأسرارًا عجيبة، أن الله تعالى أودع فيها قوى جاذبة لغذائها من قعر الأرض، ثم إن ذلك الغذاء يجري في تلك العروق حتى يتوزع على كل جزء من أجزاء تلك الورقة جزء من أجزاء ذلك الغذاء بتقدير العزيز العليم، ولو أراد الإنسان أن يعرف كيفية خلقة تلك الورقة وكيفية التدبير في إيجادها وإيداع القوى الغاذية والنامية فيها لعجز عنه، فإذا عرف أن عقله قاصر عن الوقوف على كيفية خلقة تلك الورقة الصغيرة، فحينئذٍ يقيس تلك الورقة على السماوات مع ما فيها من الشمس

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/ ٣١٩)، ثم ذكر رحمه الله خلاف العلماء حول جواز ذكر الله تعالى في الخلاء وغير ذلك من المباحث الفقهية.. فراجعه -إن شئت- ، وبنحو ما قال القرطبي قال ابن القيم كما في «بدائع التفسير» (١/ ٥٤٠).

والقمر والنجوم، وإلى الأرض مع ما فيها من البحار والجبال والمعادن والنبات والحيوان: عرف أن تلك الورقة بالنسبة إلى هذه الأشياء كالعدم.

فإذا عرف قصور عقله عن معرفة ذلك الشيء الحقير، عرف أنه لا سبيل له البتة إلى الاطلاع على عجائب حكمة الله في خلق السماوات والأرض، وإذا عرف بهذا البرهان النير قصور عقله وفهمه عن الإحاطة بهذا المقام لم يبق معه إلَّا الاعتراف بأن الخالق أجل وأعظم من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين، بل يسلم أن كل ما خلقه ففيه حكم بالغة وأسرار عظيمة وإن كان لا سبيل إلى معرفتها، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، وكلمة هذا متضمنة لضرب من التعظيم.. أي: ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثًا عاريًا عن الحكمة خاليًا من المصلحة.. بل منتظمًا لحكم جليلة ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون دلالة على معرفتك ووجوب طاعتك واجتناب معصيتك، وأن يكون مدارًا المعايش العباد ومنارًا يرشدهم إلى معرفة المبدإ والمعاد»[1].

ثالثًا: ضَرْبُ الأَمثال:

إن ضرب الأمثال مما تستلذه الأسماع وثير اتِّباعُه العقولَ إلى المقصود من وراء هذا المثل.. وهو بلا شك ذو أهَمية كبرى في حياة العرب خاصة والناس عامة، وله فوائد وأغراض عديدة كلها تشي بمكانته المتميزة لدى أهل الفطن والبصائر.

وقد تكاثرت جدًا الآيات القرآنية الضاربة للأمثال، والتي ترمي إلى

---

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٤/ ١٠٦٧ - ١٠٦٨).

إقامة الحجج على المخالفين المحادين لله ورسوله، وإنما قامت الحجة عليهم بها لأنهم فهموا مضمونها، وتفكروا في مغزاها، وأكثرهم أيقن بصدقها وصدق منزلها والمرسل بها؛ فإذا أعرضوا بعد ذلك، لم يكن لإعراضهم سبب سوى الأنفة والاستكبار.. وبئست الصفة.

ولنقتطف بعض الأمثلة السامية التي تدعوا بمضمونها إلى التفكر والتدبر في حقيقة الحياة والكون.

* قال تبارك وتعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم].

* وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس].

* وقال عز وجل: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ

ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر].

والأمثلة القرآنية الشريفة غير هذا كثيرة جدًّا.

ولما كانت تلك الأمثال الجليلة السامية في غاية الوضوح والبيان كانت متدبرها بصيرًا ومنكرها أعمى.. ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام].

رابعًا: العرض التفصيلي لبعض آيات الله تبارك وتعالى:

* قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟

نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

* وقال سبحانه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم].

* وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ

يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

[الروم].

* وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور].

* وقال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا

ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[الأنعام].

* وقال جل وعلا: ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد].

* وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم

مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

* وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ

ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس].

والآيات المبينة لبعض نعم الله تعالى على عباده أكثر من أن تحصر.. وكلها تنطق بوحدانية الإله العظيم وجلاله وكبريائه وعزته وجماله وحكمته وقدرته، وهي تدعو العباد -في نفس الوقت- إلى محبة الرحمن وتعلق القلوب به والتفكر في هذه الدنيا ومصيرها والتطلع للآخرة ونعيمها.

خامسًا: الاستفهام الاستنكاري:

* قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

[النمل].

* وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) ﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥) ﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) ﴾ [سبأ].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا

لِلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق].

* وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة].

* وقال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية].

سادسًا: ذمُّ المتغافلين عن آيات الله تعالى:

لقد أكثر الله تبارك وتعالى من ذم الغافلين المتغافلين عن رؤية آياته والتفكر في عظيم آلائه، ومعلوم أن ذم الشيء إشارة إلى أن خلافه هو المطلوب.. ولما كثر ذم الغافلين عن آيات الله دل هذا على أن التفكر أمر مطلوب وللرب محبوب.

ومن الآيات التي ذم فيها العمي الغافلون ما يلي:

* قال جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى

ﭐﻟﺼُّﺪُﻭﺭِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

* وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

* وقال تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم].

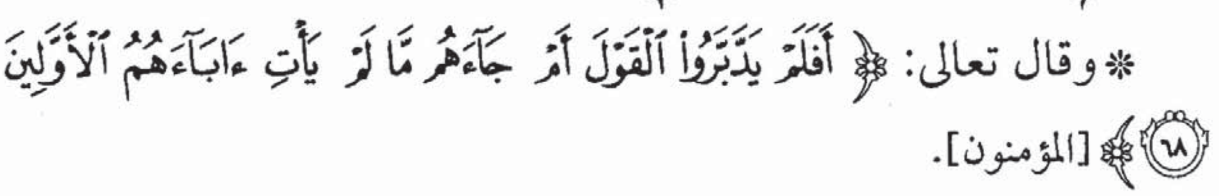
* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:].

* وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف].

□ قال الحسن في هذه الآية: «أي: أمنعهم التفكر فيها»[1].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن قيم الجوزية (١/ ٥٣٩) ط: دار ابن عفان.



* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا ﴾ [محمد].

* وقال عن بعضِ صفاتِ أهلِ النار: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الكهف].

أعطاهمُ اللهُ تعالَى عيونًا فأطبقُوها عن رؤيةِ آياتِه الكونيَّة.. وأعطاهم أسْماعًا فأغلقوها عن الانتفاعِ بآياتِه السمعيَّة، فكان جزاؤهم أن أكبَّهم على وجوههم صُمًّا وعُمياناً في دارِ الويل والشقاء.

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس].

وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ أهلَ التَّقوى همُ المنتفعون بآياتِ الله عَزَّ وَجَلَّ.. أمَّا النَّاكبون عن الصِّراط، المنحرفون عن طريقِ الحقِّ والرَّشاد فلن يلتفِتوا إلى آياتِ ربِّهم إلَّا قليلًا، ولن يتأمَّلوا فِي مخلوقاته إلَّا نادرًا؛ لأنَّ قلوبَهم منشغلةٌ بباطلها، فلم يَعُدْ للحقِّ فيها موضعٌ.. نسأل الله تعالَى العافية.

* وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية].

□ قال الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ ذا الكونَ كتابٌ مفتوح، يَحمل بذاته دلائلَ الإيمان وآياتِه، وينطقُ أنَّ وراءَه يدًا تُدبِّرُه بِحكمةٍ، ويُوحي بأنَّ وراء هذه الحياةِ الدنيا آخرةً وحسابًا وجزاءً.. وإنَّما يُدرِكُ هذه

الدلائلَ، ويقرأُ هذه الآياتِ، ويرى هذه الحكمةَ، ويَسمعُ هذه الإيحاءات: أولو الألباب من الناس، الذين لا يَمرُّون بِهذا الكتاب المفتوح [1] وبِهذه الآيات الباهرةِ مُغمِضِي الأعيُنِ غيرَ واعِين.

وهذه الحقيقةُ تُمثِّلُ أحدَ أُسسِ التصوُّرِ الإسلاميِّ عن هذا الكون والصِّلة الوثيقة بينه وبين فطرةِ الإنسان، والتفاهمِ الداخليِّ الوثيقِ بين فطرةِ الكون وفطرةِ الإنسان، ودلالةِ هذا الكون بذاته على خالِقه من جهةٍ، وعلى الناموس الذي يصرفُه وما يصاحبُه من «غايةٍ، وحكمةٍ، وقَصْد» مِن جهة أخرى.. وهي ذاتُ أهَميةٍ بالغةٍ في تقريرِ موقفِ الإنسان من الكون وإلَهِ الكون سبحانه وتعالَى.. فهي ركيزةٌ من ركائز التصوُّر الإسلاميِّ للوجود.

والقرآنُ يوجِّهُ القلبَ والأنظار توجيهًا مكرَّرًا مؤكَّدًا إلَى هذا الكتاب المفتوح الذي لا تفتأُ صفحاتُه تُقلَبُ، فتتبدَّى فِي كلِّ صفحةٍ آيةٌ موحِيةٌ تستجيشُ في الفطرة السليمة إحساسًا بالحق المستقرِّ في صفحاتِ هذا الكتاب.

التفكّر من أساليب دعوة الأنبياء:

وإن مما يدل على قيمة التفكر وأهميته في حياة الناس أنه من أهم أساليب دعوة أنبياء الله ورسله -عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

إن مقام الدعوة إلى الله -جل وعلا- أسمى وأعلى المقامات في هذه الحياة، وأشرف ألوان الاستجابة على الإطلاق أن يستجيب لك الكافر والمنافق والملحد؛ وهم غالبًا لا يؤمنون بهذا القرآن، وقد يؤمنون به باطنًا

---

(١) أي: الكوْن.



لكنهم لأسباب عديدة يأبون الدخول تحت ظل دوحة الإسلام.

وقد علمنا الله تعالى كيفية دعوة الصنف الأول خاصة إلى الإسلام، هذا الصنف الذي يكفر بالقرآن كلية ولا يؤمن أنه من عند الله عز وجل.. وكان من ألوان الدعوة المؤثرة لهؤلاء الكافرين الدعوة بالتفكر والتأمل في مخلوقات رب العالمين.. وهو من المناهج التي سار عليها الأنبياء وكرروها تكرارًا حثيثًا.. ولنكتف بدعوة الخليلين الكريمين -عليهما صوات الله وسلامه-:

أولاً: دعوة خليل الرَّحمن إبراهيم عليه السلام:

* قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ(١) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ(٢) ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ(٣) فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا

---

(١) الملكوت: الملك والسلطان وما فيه من عجائب المصنوعات.

(٢) أي: ستره وواره.

(٣) اختلف علماء التفسير حول المراد من هذه الجملة.. فذهب بعضهم إلى أن إبراهيم عليه السلام عبد الكوكب حتى غاب ثم تركه، ثم بد القمر حتى غاب، ثم تركه، ثم عبد الشمس حتى غابت، ثم تركها.. وقال آخرون: بل كان هذا في مرحلة الطفولة قبل البلوغ.. وقال آخرون: بل المقصود: «أهذا ربِّي؟» استنكارًا منه.. وقال آخرون: بل المراد من هذا مناظرة المشركين وإقامة الحجة العقلية عليهم أن هذه المخلوقات لا تصلح للعبادة.. وهذا القول الأخير هو الصواب عندي والذي قبله جيِّد.. والذي اختاره الكثير من الأئمة.. وأنكرُ الأقوال وأبعدها عن الصواب هو الأول؛ فإبراهيم عليه السلام لم يكن في يوم من الأيام مشركًا كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.. وأبعد من هذا كله أن البعض قال: إن قائل جملة: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هو آزر، فردَّ عليه إبراهيم عليه السلام ﴿لَآ أُحِبُّ =

رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

لقد وقف إبراهيم عليه السلام مع قومه -كغيره من الأنبياء- موقف الناصح الأمين المشفق عليهم من عذاب ربهم العظيم، وحاول معهم بكل السبلِ ليجرهم بعيدًا عن نيران الجحيم، وكانت المناظرات العقلية -التي تقر وتعترف بها العقول السليمة- من أهم أساليب دعوته المباركة.

ففي هذه الآيات أراد عليه السلام إقناع عباد الكواكب أنها لا تصلح للألوهية لأنها جميعًا تتفق في الغياب عن الأنظار، وبعضها يتناقص مع مرور الأيام حتى يختفي بالكلية، فكيف لمثل هذه المخلوقات الناقصة ذات المنافع المحدودة أن تُعْبَد من دون فاطرها وخالقها؟! بل إن ثبوتها على منهج واحد وتحركها في مسار محدد يمنع كونها آلهة تعبد، بل يدل هذا على أن هناك من يسيرها ويوجهها ويأمرها ألا تخالف النهج الذي اختطه لها[1].

كل هذا من باب الدعوة إلى الله تعالى بالتفكر في مصنوعاته، والاستدلال بها على أعظم علمٍ وهو العلم بالخالق تبارك وتعالى.

ٱلْآفِلِينَ ﴾ .. وهذا تكلّف ظاهر.

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٣٤٧)، «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٥)، «بدائع التفسير» (٢/ ١٥١)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٣)، «الدر المنثور» (٦/ ١٠١)، «محاسن التأويل» (٣/ ٣٤٧)، «في ظلال القرآن» (٢/ ١١٣٧)، «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٤٨٦)، «الملل والنحل» للشهرستاني.

ثانيًا: دعوة الحبيب محمد ﷺ مع قومه:

• عن أَبِي رَزِين رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي اللهُ المَوتَى؟ فقال: «**أمَا مَرَرتَ بالوادي مُمحِلًا**[1]، **ثُم تَمُرُّ**[2] **به خَضِرًا؟**» قلتُ: بلى. قال: «**كذلك يُحيي اللهُ المَوتى**».

• وفي روايةٍ أخرى عنه رضي الله عنه: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيي اللهُ الموتى؟ قال: «**أمَا مررتَ بأرضٍ من أرضك مُجدِبةٍ، ثُم مررتَ بِها مُخصِبةً؟**» قلت: نعم. قال: «**كذلك النُّشور**»[3].

• ومن روائعِ ألوان دعوةِ الرَّسولِ ﷺ للمُخالفين له أنه كان يدُلُّهم على الإيمان بربهم من خلال التأمل في الآيات الكونية فإنه لَمّا جاءَ رسولَ الله ﷺ رجلٌ، فقال له: تدعونِي إلَى جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ

---

(١) ممحلا: أي مُجدِبًا.

(٢) أي: مررت. وهذا تعبير عربي صحيح، أن يأتي فعل ماض، ثم يعطف عليه بفعل مضارع، ويكون المضارع في معنىٰ الماضي.. وانظر هذا في النحو الوافي للعلامة النحوي البارع عباس حسن رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) حسن: رواه أحمد والطبراني.. وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٣٣٤).. وللحديث بقية، وهي: «قلت: يا رسولَ الله، وما الإيْمان؟ قال: أن تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن مُحمدًا عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأن تحرق بالنار أحب إليك من أن تشرك بالله، وأن تُحبَّ غيرَ ذي نسبٍ لا تحبُّه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا كنتَ كذلك فقد دخل حبُّ الإيمان في قلبك كما دخل حبُّ الماء للظمآن في اليوم القائظ. قلت: يا رسول الله كيف لي بأن أعلم أني مؤمن؟ قال: «ما من أمتي عبد يعمل حسنة، فيعلم أنها حسنة، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ جازيه بها خيرًا، ولا يعمل سيئة، فيعلم أنها سيئة، واستغفر الله عَزَّ وَجَلَّ منها، ويعلم أنه لا يغفر إلا هو، إلا وهو مؤمن».

أُعِدَّت للمُتَّقين، فأين النَّارُ؟ فقال رسولُ الله: «**سبحانَ الله! أين الليلُ إذا جاء النَّهار؟!..**» الحديث [(١)].

✍ والأمثلة بلا ريب كثيرة وفيرة.. والمقصود منها أن نعلم أن التفكر والتأمل في آيات الكون البديع من أنفع وأقرب وسائل الدعوة إلى الله تعالى، ولا سيما أنها تعتمد على البدهيات العقلية التي لا ينكرها العقل السليم أيًّا كانت نحلة صاحبه ومذهبه.

وبهذا السبيل المضمون يمكننا جميعًا أن ندعو الكفار إلى الإسلام، ونتدرج معهم في بيان أحقية إله العالمين وحده بالعبادة دون كل من وماء سواه ﷻ وتقدست أسماؤه [(٢)].

علو همة الرسول ﷺ في التفكّر:

● عن عطاءٍ قال: دخلتُ أنا وعُبَيدُ بنُ عُمير على عائشة ﵂، فقالت: لِعُبيدٍ: قد آنَ لك أن تزورَنا! فقال: أقولُ -يا أُمَّه- كما قال الأول: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا» [(٣)].

فقالت: «دَعُونا من رَطَانَتِكُم هذه» [(٤)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد.

(٢) انظر «الكلمات القيمة» للشيخ الدكتور عمر الأشقر في ردِّه على شبهة القائلين: كيف ندعو بالقرآن من لا يؤمن بالقرآن في كتابه القيّم «العقيدة في الله».

(٣) معنى: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»، أي: زُرْ بين يومٍ وآخَرَ يزددْ حُبُّ صاحبِك لك.. ولا تَزُرْه كلَّ يومٍ فيملَّ ويسأمَ. وأودُّ التنبيهَ على أن هذا الكلامَ جاء من حديث النبي ﷺ، رواه الطبراني والبزار، وهو حديث حسنٌ بطرُقه وشواهده.. انظر «صحيح الجامع».

(٤) أي: من تبريراتكم هذه.

فقال ابنُ عُميرٍ: أخبِرينا بأعجبِ شيءٍ رأيتِهِ من رسولِ الله ﷺ، فسكتت، ثُم قالت رضي الله عنها: لَمَّا كان ليلةٌ من الليالي قال: «**يا عائشةُ، ذَرِيني أَتَعَبَّدُ الليلةَ لربِّي**». فقلتُ: والله إنِّي لأُحِبُّ قُربَك، وأُحِبُّ ما يَسرُّكَ.. فقام، فتطهَّرَ، ثُم قام يُصلِّي؛ فلم يزل يَبكي حتَّى بَلَّ حِجرَه؛ ثُم بكى، فلم يزل يَبكِي حتَّى بلَّ لحيتَه؛ ثُم بكى، فلم يزل يَبكي حتَّى بلَّ الأرضَ، فجاء بلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسولَ الله، لِمَ تَبكِي وقد غَفر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! قال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟! لقد نَزلت عليَّ الليلةَ آيةٌ، ويلٌ لِمَن قرأها ولَم يتفكَّرْ فيها**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران] »[1].

□ وقد قيل للإمام الأوزاعي عن هذه الآيات: «ما غاية التفكّر فيهن؟ فقال: يقرؤهن وهو يعقلهن»[2].

□ وثبت أن رسول الله ﷺ كان يذهب إلى حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد». هذا قبل بعثته ﷺ.

□ وثبت عنه ﷺ أنه «كان كثير النظر إلى السماء»[3].

• وقال رسول الله ﷺ: «لا تتفكَّروا في ذات الله، وتفكَّروا في خلْق الله»[4].

---

(١) صحيح: رواه ابن حبّان (٢/ ٣٨٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٠٥)، و«الدر المنثور» (٤/ ١٨٢).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم.

(٤) حسن: رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وحسنه الألباني في «الصحيحة».. وقال العلامة القاسمي في «محاسن التأويل» (٢/ ١٩٣)- ط: «التاريخ العربي»: له =

وهاكم طائفةً من أقوالِ السَّلف الصالِح:

□ عن مُحَمَّد بنِ واسع: «أن رجلًا من أهل البَصرة ركِب إلى أمِّ ذر - بعدما ماتَ أبو ذرٍّ -، فسألَها عن عِبادةِ أبِي ذرٍّ.. فقالت: كان نَهارَه أجْمعَ فِي ناحيةِ البيت يتفكَّرُ».

□ وعن عَونِ بن عبد الله بن عُتبة قال: «سألتُ أمَّ الدرداء. ما كان أفضلَ عملِ أبي الدَّرداء؟ قالت: التفكُّرُ والاعتبار».

□ وعن الحسنِ قال: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ»[1].

□ وقال أيضًا: «مَن لَم يكن كلامُه حِكمةً فهو لَغوٌ.. ومَن لَم يكن سكوتُه فِكرًا فهو سَهوٌ.. ومَن لَم يكن نَظرُه اعتبارًا فهو لَهوٌ».

□ وقال بعضُ السَّلف: «كُونوا فِي الدنيا أضيافًا، واتَّخِذوا المساجدَ بُيوتًا، وعوِّدوا قلوبَكمُ الرِّقَّة، وأكثِروا التفكُّرَ والبكاء، ولا تَختلفَنَّ بكمُ الأهواء.. تَبنُون ما لا تَسكنون! وتَجمَعون ما لا تأكلون! وتأمَلون ما لا تُدرِكون!!».

□ وعن الفُضيل قال: «الفِكرةُ مرآةٌ تُريك حَسناتِك وسيِّئاتك».

□ وكان لُقمانُ يُطيلُ الجلوسَ بِمفرده، فقيل له: «إنك تُكثِرُ الجلوس وحدَك! فلو جالستَ الناسَ كان آنسَ لك.. فقال: إنَّ طُولَ الوِحدةِ أفهمُ للفِكر، وطولَ الفِكرِ طريقٌ مِن طُرقِ الجَنَّة».

شواهد كثيرة.. والحديث ضعفه العلامة شعيب الأرنؤوط في «تحقيق الآداب الشرعية» للإمام ابن مفلح وورد موقوفًا على ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٨٠، ١٨١).

(١) «الحلية» (٦/ ٢٧١).

◘ وقال وهبُ بنُ مُنبِّهٍ: «ما طالت فكرةُ امرئٍ قطُّ إلَّا عَلِم.. وما عَلِم امرؤٌ قطُّ إلَّا عَمِل».

◘ وقال عمر بن عبد العزيز: «الكلام بذكر الله حسن، والفكرة في نعم الله عَزَّوَجَلَّ أفضل العبادة»(١).

◘ وقال أيضًا: «اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه».

◘ وعن بكر بن خنيس قال: قلت لسعيد بن المسيب -وقد رأيت أقوامًا يصلون ويتعبدون-: «يا أبا محمد، ألا تتعبد مع هؤلاء القوم؟ فقال لي: يا ابن أخي، إنها ليست بعبادة. قلت له: فما التعبد يا أبا محمد؟ قال: التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله، وأداء فرائض الله تعالى».

◘ وقال صالِحُ بن مُحَمَّد الليثي: «كان فتيةٌ من بني ليثٍ يَختلفون إلَى مسجد رسول الله ﷺ، يصومُون، ويقومُون بين الظهر والعصر، فقلت لسعيدِ بن المسيَّب: يا أبا مُحَمَّد، ما يَمنعُنا أن نفعلَ كما يفعلُ هؤلاءِ الليثيُّون؟ فقال: اسكت، فإن عبادةَ الله ليست بالصوم ولا بالصلاة، ولكن بالفقه فِي دينه، والتفكُّرِ فِي أمره»(٢).

◘ وعن كعب قال: «من أراد أن يبلغ شرف الآخرة، فليكثر التفكر يكن عالمًا».

◘ وقال عبد الله بن المبارك يومًا لسهل بن علي -وقد رآه صامتًا متفكرًا-: «أين بلغت؟ فقال: الصراط».

---

(١) «الحلية» (٥/ ٣١٤).

(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (١/ ١١٨).

□ وقال بشر: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط».

□ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ».

□ وبينما أبو شريح يمشي يومًا إذ جلس، ثم بكى بكاءً شديدًا.. فقيل له: ما يبكيكَ؟ فقال: «تَفكَّرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي».

□ وقال أبو سليمان: «عودوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر»[1].

□ وعن أبي عاصم بن يزيد قال: «ربما كان يأخذ سفيان في التفكر، فينظر إليهِ الناظرُ، فيقول: مَجنون».

□ وعن سفيان بن عيينة قال: «التفكر مفتاح الرحْمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب».

□ وعنه أنه كان يتمثَّل:

إذا المرء كانت له فكرة ... ففي كل شيء له عبرة[2]

□ عن مغيث قال: «بينما رجل -مِمن كان قبلكم- يسير وحده، إذ تفكر فيما سلف من ذنوبه -وكان يعمل بالمعاصي-، فقال: اللهم غفرانك.. فأدركه الموت على تلك الحال، فغفر له».

□ وعن يوسف بن سعيد بن مسلم قال: «قلت لعلي بن بكار: كان إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة؟ قال: لا؛ ولكنه صاحبُ تفكر يجلس ليله يتفكر».

---

(١) «الحلية» (٩/ ٢٧٤).

(٢) «الحلية» (٧/ ٣٠٦).

□ وجاء في بعض الكتب السابقة: «وعلى العاقل أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب».

□ «وقيل لإبراهيم بن أدهم: «إن تطيل الفكرة! فقال: الفكرة مخ العقل».

□ وقال الحسن: «طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة».

□ وقال وهبٌ: «ما طالت فكرة أحد قط إلَّا علم، وما علم امرؤٌ قط إلَّا عمل».

□ وقال أبو سليمان: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية؛ والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلوب».

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «التفكر في الخير يدعو إلى العلم به».

□ وقال الحسن: «إن أهل العلم لَم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر، ويناطقون القلوب حتَّى نطقت بالحكمة».

□ وقال الشافعي رحمه الله: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة».

□ قال الإمام ابن القيم معلقًا: «وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح».

وأيضًا فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه العمل المجرد؛ فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له،

وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة، فيشتغل به دون الأول.

فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها -بل بحرها- الذي لا تنفك سابحة فيه، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة»(١).

□ وقال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء فهمته شغله.

ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش، ويحرز قيمته، والنجار ينظر إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط!.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر (٢)، وإن رأى مؤلمًا ذكر

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٨- ٥٤٠).

(٢) كما ورد عن الإمام الجبل عبد الله بن المبارك أنه كان مع بعض أصحابه يومًا، فانطفأ السراج، فخرج أحدهم ليحضر سراجًا آخر، فلمَّا جيء بالمصباح وجدوا عينيه تذرفان الدموع.. وذلك لأنه تذكر ظلمة القبر.. انظر: مقدمة «الزهد والرقائق» للإمام ابن المبارك (١٥- ط: دار العقيدة)، بتحقيق الشيخ الحبيب أحمد فريد.

العقاب [(١)]، وإن سمع صوتًا فظيعًا ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نيامًا ذكر الموتَى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.

وأعظم ما عنده أنه يتخايل دوام البقاء في الجنة، وأن بقاءه لا ينقطع ولا يزال ولا يعتريه منغص، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلبًا في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى يطيش فرحًا، ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غصصه؛ فإن المشتاق إلى الكعبة يهون عليه رمل زرود، والتائق إلى العافية لا يبالِي بمرارة الدواء، ويعلم أن جودة الثمر، ثم على مقدار جودة البذر هاهنا.. فهو يتخير الأجود ويغتنم الزرع في تشرين العمر من غير فتور، ثم يتخيل المؤمن دخول النار والعقوبة، فيتنغص عيشه ويقوى قلقه.. فعنده بالحالين شغل عن الدنيا وما فيها.. فقلبه هائم في بيداء الشوق تارة، وفي صحراء الخوف أخرى، فما يرى البنيان.

فإذا نازله الموت قوي ظنه بالسلامة، ورجا لنفسه النجاة، فيهون عليه.

فإذا نزل إلى القبر وجاءه من يسألونه قال بعضهم لبعض: دعوه، فما استراح إلَّا الساعة.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ يقظة تامة تحركنا إلى طلب الفضائل، وتمنعنا من اختيار الرذائل؛ فإنَّه إن وفِّق، وإلَّا، فلا نافع» انتهى [(٢)].

---

(١) كما يحكي عن طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان إذا مر برجل يشوي رؤوس الأغنام كان يغشى عليه ولا يقدر أن يتعشى هذا اليوم.. وما ذاك إلا لأنه تذكر أهل النار حين تشوى رؤوسهم في نار الجحيم عياذًا بالرب الرحيم.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٦٤٤، ٦٤٥) ط. ابن خزيمة.

□ وقال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيءٍ، إلَّا رأيت لله فيه علي نعمة، وليس فيه عبرة».

□ وقال سفيان بن عيينة: «الفكرة نور يدخل القلب».

□ وقال عيسى: «طوبَى لمن كان قِيلُه تذكرًا، وصمته تفكرًا، ونظره عبرًا».

□ وقال لقمان: «إن طول الوحدة ألهم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق أبواب الجنة».

□ وقال مغيث بن الأسود: «زوروا القبور تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين، إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها.. وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعًا من بين أصحابه قد ذهب عقله».

□ وقال بعض الحكماء: «من نظر إلى الدنيا بغير العبرة، انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة».

□ وقال غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم: «إن ضياء الإيمان التفكر».

□ وقال عيسى: «يا ابن آدم الضعيف، اتق الله حيثما كنت، وكن في الدنيا ضيفًا، واتخذ المسجد بيتًا، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر، وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد».

□ وقال الشاعر:

نزهة المؤمن الفكر ... لذة المؤمن العبر

نَحمد اللهَ وحده ... نَحن كل على خطر

رب عيش قد كان فو ... ق المنَى مونق الزهر



فِي خرير من العيو	ن وظل من الشجر
وسرور من النبا	ت وطيب من الثمر
غيرته وأهله	وسرعة الدهر بالغير
نَحمد اللهَ وحده	إن في ذا لَمعتبر
إن في ذا لعبرة	للبيبت إن اعتبر [(١)]

□ وعاتبت امرأة صهيب الرومي ﷺ زوجها في كثرة السهر، فقال لها: «إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه» [(٢)].

□ وقال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه علم أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة» [(٣)].

□ وقال بعض الحكماء: «أحي قلبك بالمواعظ، ونوره بالفكر، وموته بالزهد وقوِّه باليقين، وذلاه بالموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الأيام، واعرض عليك أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسر في ديارهم وآثارهم وانظر ما فعلوا، وأين حلوا، وعم انقلبوا».

□ وقال الشاعر:

يا من يصيخ إِلَى داعي الشقاء وقد	نادى به الناعيان: الشَّيب والكِبَرُ
إن كنت لا تسمعُ الذكرى ففيم ترى	فِي رأسك الواعيان: السمعُ والبصرُ؟

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٩٥) ط- أولاد الشيخ.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١١٦).

(٣) المصدر السابق (١٣/ ٢١٦).

لیس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجلٍ لَم يهـده الْهاديـان: العـينُ والأثـرُ
لا الدهرُ يبقى ولا الدنيا ولا الفَلَكُ الـ أعلى ولا النيِّران الـشمسُ والقمـرُ
لـيَرحلنَّ عـن الـدنيا وإن كَرِهَـا فراقها الثاويان: البيدُ والحَضَرُ [1]

لله درّ سلفنا الصالح:

✍ لقد اعتنى سلفنا الصالح بعبادة التفكر عناية عظيمة، وخصت بها بعض المؤلفات النفيسة، وكل هذا يدل على معرفة هؤلاء الأفاضل بقيمة هذه العبادة في التعلق بالرب العظيم وحبه والاستقامة على دربه.. ولنأخذ بعض الأقوال والأحوال من سيرتهم العطرة:

◻ فها هو الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ يُسأَلُ عن أدلّةِ وجودِ الله تعالَى، فيَستدلُّ على ذلك باختلافِ النَّغمات واللُّغات والأصوات.

◻ والإمامُ أبو حنيفةَ رَحِمَهُ اللهُ جاءه بعضُ الزَّنادقة، وسألوه عن دليلٍ يَدُلُّهم على وجودِ الربِّ العظيم.. فقال لَهم: «دعونِي الآن، فإنِّي أُفكِّرُ في أمرٍ مُحيِّرٍ. فقالوا له: وما هو؟ قال: أخبَرونِي أن هناك سفينةً فِي البحر مُحمَّلةً بأنواعِ البضائع، وليس فيها أحدٌ يَحرُسُها ولا يقودُها، وهي مع ذلك تذهبُ وتَجيءُ وتسيرُ بنفسها وتَخترقُ الأمواجَ العظامَ حتَّى تتخلَّصَ منها، ثُم تضعُ بضائعَها بنفسها فِي البلاد.

فقالوا له مُندهِشِين: هذا لا يُمكنُ أن يَحدث، ولا يقولُه عاقلٌ!!.

فقال لَهم: ويْحكم!! فهذه الموجوداتُ بِما فيها من العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما اشتملت عليه من الأشياء المُحكمة، أليس لَها صانعٌ؟!!.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٧٩، ٨٠).

فتابُوا جَميعًا، واسلموا على يديه.

□ والإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، سُئل عن دليلٍ على وجود الله تعالَى، فقال: «هذه ورقةُ توتٍ، تأكلُه الدُّودُ فيَخرجُ منها الحرير، وتأكلُه النَّحلُ فيخرجُ منها العسلُ، وتأكلُه الشَّاءُ والبَقرُ والأنعام فيَخرجُ منها البَعرْ والرَّوثُ، وتأكلُه الظِّباءُ فيَخرجُ منها المِسكُ.. كلُّ هذا والتُّوتُ شيءٌ واحد!!.

□ والإمامُ أحْمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُئل عن نفسِ الشيء، فقال: لدينا حِصنٌ حصينٌ أملسُ، ليس له بابٌ ولا مَنفذٌ ظاهر، وهو كالفِضَّةِ بياضًا، وباطنُه منَ الداخل كالذَّهب الخالص.. وبينما هو كذلك إذِ انشقَّ جِدارُه، فخرج منه حيوانٌ سَميعٌ بصيرٌ ذو شكلٍ حسن وصوتٍ مليح.

ويقصدُ الإمامُ بِهذا كلِّه: البَيضةَ والطائر.

□ وسُئل أحدُ الأعراب عن دليلٍ على وجودِ الله تعالَى، فقال: سبحان الله!! سَماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجاج، وبِحارٌ ذاتُ أمواج.. ألَا يدلُّ ذلك على وجودِ اللطيف الخبير؟!!.

إلَى غير ذلك من الأخبار التِي تُبيِّنُ أن أهل الإيمانِ كانوا يَسلكون فِي دعوتهم ومناظرة غيرهم مسلك التفكّر في آيات الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

تفكُّر يؤدي إلى المعاينة واليقين:

□ عن جعفر بن سليمان قال: سمعت خليفة العبدي يقول: «لو أن الله لم يُعبد إلَّا عن رؤية ما عبده أحد؛ ولكن المؤمنون تفكَّروا في مجيء هذا الليل إذا جاء، فملأ كل شيءٍ، وغطَّى كل شيءٍ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء، فمحا سلطان الليل؛ وفي السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وفي

(١) انظر «معارج القبول» للشيخ حافظ حكمي (١/ ١٣٥) ط: دار ابن الجوزي.

النجوم، وفي الشتاء، وفي الصيف؛ والله ما زال المؤمنون يتفكَّرون فيما خلق ربهم، حتى أيقنت قلوبهم بربهم؛ وحتى كأنما عبدوا الله تعالى عن روية»[(١)].

□ كان عتبة الغلام يستقبل القبلة فلا يزال في فكرٍ وبكاءٍ حتى يُصبح.

علو همّة سفيان الثوري في التفكُّر:

□ عن يوسف بن أسباط قال: «كان سفيان من شدَّة تفكُّره يبول دمًا»[(٢)].

□ وعن يوسف بن أسباط قال: «قال لي سفيان الثوري -وأنا وهو في المسجد-: يا يوسف، ناولني المطهرة أتوضَّأ؛ فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خدِّه، ونمت؛ فاستيقظت، وقد طلع الفجر، فنظرت إليه، فإذا المطهرة في يده على حالها؛ فقلت: يا أبا عبد الله، قط طلع الفجر؛ قال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكَّرُ في الآخرة إلى هذه الساعة»[(٣)].

□ وعن أبي عاصم بن يزيد قال: «ربما كان سفيان يأخذ في التفكُّر، فينظر إليه الناظر، فيقول: مجنون»[(٤)].

□ عن سلام قال: «أتى الحسن بكوز من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى؛ وقال: ذكرت أمنية أهل النار وقولهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ وذكرت ما أُجيبوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]»[(٥)].

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٠٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٣).
(٣) المصدر السابق (٧/ ٥٣).
(٤) «الحلية» (٦/ ٣٩٢).
(٥) المصدر السابق (٦/ ١٨٩).

□ وعن سليمان بن إدريس المقري قال: «اشتهى الحسن بن صالح سمكة، فلما أُتِي بها، ومدَّ يده إلى سُرَّة السمكة، فاضطربت يده، أُمِر به فرُفِع، ولم يأكل منه شيئًا؛ فقيل له في ذلك. فقال: إني ذكرت لما ضربت بيدي: أن أولما ينتن من الإنسان بطنه، فلم أقدر أن أذوقه»(١).

□ وعن عبد الأعلى بن زياد الأسلمي قال: «رأيت داود الطائي، قائمًا على شاطئ الفرات مبهوتًا؛ فقلت: يا أبا سليمان، ما يوقفك هنا؟ قال: أنظر إلى الفلك، كيف تجري في البحر مسخَّرات بأمر الله تعالى»(٢).

□ ومَرَّ الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة، فجلس يحمد الله ويبكي، فمرَّ به رجل، فقال: ما يبكيك رحمك الله؟ قال: «ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء؛ فذلك الذي أبكاني»(٣).

□ وعن الحسن بن صالح قال: «إن لقمان لمّا قال لابنه: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦]، تفكَّر، فمات»(٤).

□ وقال أبو سليمان الداراني: «رُدَّ سبيل العُجب: بمعرفة النَّفس، وتخلَّصْ إلى إجماع القلب: بقلّة الخطأ، وتعرَّض لرقة القلب: بمجالسة أهل الخوف، واستجلب نور القلب بدوام الحُزْن، والتمس باب الحزن: بدوام الفكرة، والتمس وجوه الفكرة في الخلوات»(٥).

---

(١) «الحلية» (٧/ ٣٢٨).

(٢) «الحلية» (٧/ ٣٥٧).

(٣) «الحلية» (٥/ ٧٨).

(٤) «الحلية» (٧/ ٣٣٠).

(٥) «الحلية» (٩/ ٢٦٦).

□ وعن وهب بن منبه قال: «ألم يفكِّر ابن آدم، ثم يتفهَّم ويعتبر، ثم يبصر، ثم يعقل ويتفقَّه حتى يعلم»[(١)].

□ وقال الإمام الهروي صاحب «منازل السائرين» عن «الفكرة»: «هي تلمُّس البصيرة لاستدراك البغية».

□ وقال ابن القيم معلِّقًا: «أي التماس العقل المطلوب بالتفتيش عليه».

□ قال الهروي: «وهي ثلاثة أنواع: فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصَّنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال».

□ قال ابن القيم: «قلتُ: الفكرة فكرتان: فكرة تتعلَّق بالعلم والمعرفةِ، وفكرة تتعلَّق بالطلب والإرادة».

فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة: فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي. والتي تتعلَّق بالطلب والإرادة: هي الفكرة التي تُميِّز بين النافع والضار.

ثم يترتَّبُ عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلى ما يضرّ فيتركها.

فهذه ستة أقسام لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء.

فالفكرة في التوحيد: استحضار أدلَّته، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين. فكذلك من أبطل الباطل عبادة اثنيْن، والتوكل على اثنيْن، بل لا تصح العبادة إلَّا للإله الحق، والرب الحق، وهو الله الواحد القهار» اهـ[(٢)].

---

(١) «الحلية» (٤/ ٢٣- ٢٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٤٦) ط. أنصار السنَّة.

□ عن ذي النون قال: «لا يتفكَّر القلب لغير الله، إلَّا إذا كان عليه عقوبة»[(١)].

□ وقال: «تُنال المعرفة بالنظر في الأمور كيف دبَّرها؟ وفي المقادير: كيف قدَّرها؟ وفي الخلائق: كيف خلقها؟»[(٢)].

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد صنَّفَ هذه المخلوقات فأحسن التركيب وأحكم الترتيب، ثم عرضها على الألباب؛ فأيُّ لُبٍّ أوغل في النظر، مُدِح على قدر فهمه.

وكذلك أُنزل القرآن يحتوي على عجائب الحِكَم؛ فمن فَتَّشَهُ بيد الفهم وحادثه في خلوة الفِكْر؛ استجلب رضى المتكلِّم به، وحَظِيَ بالزُّلْفَى لديه، ومَن كان ذهنُهُ مُسْتَغْرِقَ الفهم بالحِسِّيَّات؛ صُرِف عن ذلك المقام».

* قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

أصلُ الخير من قِبَل التفكّر:

«أصلُ الخير والشرِّ مِن قِبَل التفكُّر؛ فإنَّ الفِكْرَ مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والتَّرْك والحُبِّ والبغض، وأنفع الفكر الفكرُ في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد، وفي طرق اجتنابها.

ويليها أربعة: فِكْرٌ في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها.

فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣٨٣).

(٢) المصدر السابق.

□ ورأس القسم الأوَّل الفِكْرُ في آلاءِ الله ونعَمه وأمره ونهيه، وطُرقِ العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابِهِ وسُنَّةِ نبيِّه وما والاهما.

وهذا الفكْر يُثمِرُ لصاحبه المحبَّة والمعرفة، فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخِسَّتها وفنائها: أثمر له ذلك الرَّغْبَةَ في الآخرة والزهدَ في الدنيا، وكُلَّما فكَّر في قِصَر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجدَّ والاجتهاد وبَذْلَ الوُسْعِ في اغتنام الوقت.

وهذه الأفكارُ تُعْلِي هِمَّتَه وتُحْييها بعد مَوْتها وسُفولِها، وتجعلُه في وادٍ والناسَ في وادٍ»[1].

فيا نفسُ:

«الخلوة الخَلْوة! واستحضري قرين العقل، وجُولي في حَيْرةِ الفِكْرِ، واستدركي صُبَابَة[2] الأجلِ، قبل أن تميل بك الصَّبَابة عن الصواب»[3].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّبُّ تعالى يدعو عبادَه في القرآنِ إلى معرفتِهِ من طريقين:

أَحدهما: النَّظرُ في مفعولاتِهِ[4].

والثاني: التفكُّرُ في آياتِهِ وتدُّبرُها، فتلكَ آياتُه المشهودةُ، وهذهِ آياتُه المسموعةُ المعقولةُ.

---

(١) «الفوائد» لابن قيم الجوزية، وانظر «فوائد الفوائد» (ص٣٤٨- ٣٤٩).

(٢) صُبابة الأجل: البقيّة الباقية من العمر. والصَّبابة:الأهواء.

(٣) «صيد الخاطر» (ص٣٤١- ٣٤٢).

(٤) أي: ما هو مَفعولٌ له سبحانَه وتعالىٰ؛ من أصناف المخلوقات، وأنواع الموجودات.

فالنوعُ الأوَّلُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

وهو كثيرٌ في القرآنِ.

والثاني: كقولِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وقولِهِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

وهو كثيرٌ أيضًا.

فأَمَّا المفعولاتُ؛ فإِنَّها دالةٌ على الأَفعالِ، والأَفعالُ دالَّةٌ على الصفاتِ؛ فإِنَّ المفعولَ يدلُّ على فاعلِ فعلِهِ، وذلكَ يستلزمُ وجودَه وقدرتَه ومشيئتَه وعلمَه؛ لاستحالةِ صُدورِ الفعلِ الاختياري [(١)] من معدومٍ أَو موجودٍ لا قدرةَ له ولا حياةَ ولا علمَ ولا إِرادةَ.

ثمَّ ما في المفعولاتِ من التخصيصاتِ المتنوِّعةِ: دالٌّ على إِرادةِ الفاعلِ، وأَنَّ فعلَه ليسَ بالطَّبعِ؛ بحيثُ يكونُ واحدًا غيرَ متكرِّرٍ.

وما فيها من المصالحِ والحِكَمِ والغاياتِ المحمودةِ: دالٌّ على حكمتِهِ تعالى.

وما فيها من النَّفعِ والإِحسانِ والخيرِ: دالٌّ على رحمتِهِ.

---

(١) الذي يفعلُه متىٰ شاءَ كيفَ شاءَ.

وما فيها من البطشِ والانتقامِ والعقوبةِ: دالٌّ على غضبِهِ.

وما فيها من الإكرامِ والتقريبِ والعنايةِ: دالٌّ على محبتِهِ.

وما فيها من الإهانةِ والإبعادِ والخِذلانِ: دالٌّ على بُغضِهِ ومَقْتِهِ.

وما فيها من ابتداءِ الشيءِ في غايةِ النَّقصِ والضَّعْفِ: ثمَّ سَوْقِه إلى تمامِهِ ونهايتِهِ دالٌّ على وقوعِ المعادِ.

وما فيها من أَحوالِ النَّباتِ والحيوانِ وتَصْريفِ المياهِ: دليلٌ على إِمكانِ المعادِ.

وما فيها من ظُهورِ آثارِ الرَّحمةِ والنعمةِ على خلقِهِ: دليلٌ على صحّةِ النبوّاتِ.

وما فيها من الكمالاتِ التي لو عُدِمَتْها كانت ناقصةً: دليلٌ على أَنَّ مُعطِيَ تلكَ الكمالاتِ أَحقُّ بها.

.. فمفعولاتُهُ من أَدلِّ شيءٍ على صفاتِهِ، وصدقِ ما أَخبرتْ به رُسلُهُ عنه.

فالمصنوعاتُ شاهدةٌ تُصَدّقُ الآياتِ المسموعاتِ، مُنبِّهةٌ على الاستدلالِ بالآياتِ المصنوعاتِ:

* قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، أي: أَنَّ القرآنَ حقٌّ، فأَخبرَ أَنَّه لا بدَّ أَنْ يُريَهم من آياتِهِ المشهودةِ ما يُبيّنُ لهم أَنَّ آياتِهِ المتلوّةَ حقٌّ.

ثمَّ أَخبرَ بكفايةِ شهادتِهِ على صحّةِ خبرِهِ؛ بما أَقامَ من الدَّلائلِ والبراهينِ على صدقِ رسولِهِ.

فآياتُهُ شاهدةٌ بصدقِهِ، وهو شاهدٌ بصدقِ رسولِهِ بآياتِهِ، فهو الشاهدُ

والمشهودُ له، وهو الدَّليلُ والمدلولُ عليه، فهو الدَّليلُ بنفسِهِ، كما قالَ بعضُ العارفين: كيفَ أَطلبُ الدَّليلَ على مَنْ هو دليلٌ لي على كلِّ شيءٍ؟ فأَيُّ دليلٍ طلبتُهُ عليه فوجودُهُ أَظهرُ منه!!

ولهذا قالَ الرُّسلُ لقومِهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فهو أَعرفُ من كلِّ معروفٍ، وأَبْيَنُ من كلِّ دليلٍ، فالأَشياءُ عُرِفتْ به في الحقيقةِ، وإِنْ كانَ عُرِفَ بها في النَّظرِ والاستدلالِ بأَفعالِهِ وأَحكامِهِ عليه»[1].

◻ وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معرفةُ الله سبحانُه نوعانِ:

الأولُ: معرفةُ إقرارٍ، وهي التي اشتركَ فيها الناسُ؛ البَرُّ والفاجرُ، والمطيعُ والعاصي.

والثاني: معرفةٌ توجِبُ الحياءَ منه والمحبةَ له وتعلُّقَ القلبِ به والشوقَ إلى لقائِهِ وخشيتَهُ والإنابةَ إليه والأنسَ به والفرارَ من الخلقِ إليه، وهذه هي المعرفةُ الخاصةُ الجاريةُ على لسانِ القوم، وتفاوتُهم فيها لا يُحصيهِ إلَّا الذي عرَّفهم بنفسِهِ وكَشَفَ لقلوبِهِم من معرفتِهِ ما أخفاهُ عن سِواهم، وكلٌّ أشارَ إلى هذه المعرفةِ بحَسَبِ مقامِهِ وما كُشفَ له منها، وقد قالَ أعرفُ الخلقِ به: «**لا أُحْصي ثَناءً عليكَ أنتَ كَما أثْنَيْتَ على نَفْسِكَ**»[2]، وأخبرَ أنَّه سبحانَه يفتحُ عليه يومَ القيامةِ من محامدِهِ بما لا يُحسِنُهُ الآنَ.

---

(١) «فوائد الفوائد» (٢٧- ٢٩).

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم (٤- كتاب الصلاة، ٤٢- باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

□ وهذه المعرفةِ بابانِ واسعانِ:

البابُ الأولُ: التفكُّرُ والتأمُّلُ في آياتِ القرآنِ كلِّها، والفَهْمُ الخاصُّ عن الله ورسولِهِ ﷺ.

البَابُ الثاني: التفكُّرُ في آياتِهِ المشهودةِ، وتأمُّلُ حكمتِهِ فيها وقدرتِهِ ولطفِهِ وإحسانِهِ وعدلِهِ وقيامِهِ بالقِسْطِ على خَلْقِهِ.

وجُمَّاعُ ذلك: الفقهُ في معاني أسمائِهِ الحسنى وجلالِها وكمالِها وتفرُّدِهِ بذلك وتعلُّقِها بالخَلْق والأمرِ؛ فيكونُ فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائِهِ وقدرِهِ، فقيهًا في أسمائِهِ وصفاتِهِ، فقيهًا في الحُكْم الدينيِّ الشرعيِّ والحكم الكونيِّ القَدَريِّ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]»[1].

□ وقال مُغيثُ الأسوَدُ: «زُورُوا القُبُورَ كُلَّ يومٍ تُفكِّركم، وشَاهِدوا الموقِفَ بقُلوبِكُمْ، وانظروا إلى المنصرَفِ بالفريقَينِ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ، وأَشعِرُوا قُلُوبَكُمْ وأَبْدَانَكُمْ ذِكْرَ النَّارِ وَمَقَامِعهَا وأَطْبَاقِهَا، وكان يَبْكِي عندَ ذلك حَتَّى يُرْفَعَ صريعًا من بين أصحابِهِ قد ذهب عَقْلَهُ»[2].

□ وقالَ أَبو سُليمانَ: «الفِكْرُ في الدُّنيا حِجَابٌ عن الآخرةِ والفكْرُ في الآخرةَ يُورِثُ الحكمةَ ويُحيِي القلوبَ»[3].

□ وعن امرأةٍ كانت تَسكنُ البادية قريبًا من مكَّةَ أنها قالت: «لو تَطلَّعَتْ قُلوبُ المتَّقين بِفكرِها إلى ما قَدِ ادُّخِرَ لها في حُجبِ الغيبِ من خيرِ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٣٧٨- ٣٧٩).

(٢) «الإحياء» (٤/ ٤٢٥).

(٣) «الإحياء» (٤/ ٤٢٤).

الآخرةِ لم يَصْفُ لهُم في الدُّنيا عيشٌ ولم تقرَّ لهم في الدُّنيا عينٌ»[(١)].

□ وقال العلامةُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنْفعُ الدواءِ أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيكَ دون ما لا يعنيكَ، فالفِكرُ فيما لا يَعني بابُ كُلِّ شَرٍّ، ومن فكَّر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفعِ الأشياءِ له بما لا منفعةَ له فيه، فالفِكْرُ والخواطرُ والإرادةُ والهمَّةُ أحقُّ شيءٍ بإصلاحِه من نفسك؛ فَإنَّ هذه خَاصَّتُكَ وحقيقتُكَ التي لا تبتَعِدُ أو تقتربُ من إلهك ومعبودِكَ الذي لا سَعَادة لك إلَّا في قُرْبِهِ وَرَضَاهُ عنك إلَّا بها، وكُلُّ الشَّقَاءِ في بُعدِكَ عنْهُ وسُخْطِهِ عليك، ومن كان في خَوَاطِرِهِ ومَجالاتِ فِكرِه دَنِيئًا خَسِيسًا لم يكن في سَائرِ أمرِهِ إلَّا كذلك»[(٢)].

□ أَنْشَدَ بَعْضُ الأُدَباءِ:

إنِّي رَأَيْـــتُ عَوَاقِـــبَ الـــدُّنْيَا	فَتَرَكْـتُ مَـا أَهْـوَى لِمَـا أَخْـشَى
فَكَّـــرْتُ فِي الـــدُّنْيَا وَعَالَمِهَـــا	فَـــإذَا جَمِيـــعُ أُمُورِهَـــا تَفْنَـــى
وَبَلَـــوْتُ أَكْثَـــرَ أَهْلِهَـــا فَـــإِذَا	كُـــلُّ امْـــرِئٍ فِي شَـــأْنِهِ يَـــسْعَى
أَسْـــنَى مَنَازِلِهَـــا وَأَرْفَعُهَـــا	فِي الْعِـــزِّ أَقْرَبُهَـــا مِـــنَ الْـــمَهْوَى
تَعْفُـــو مَـــسَاوِيهَا مَحَاسِـــنَهَا	لا فَـــرْقَ بَـــيْنَ النَّعْـــي والبُـــشْرَى

ونختم بهذه الأحاديث العظيمة لسيد الأنام ﷺ:

• عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: بِتُّ عند خَالتي مَيمُونَةَ فتحدَّثَ رسولُ الله ﷺ مَع أَهْلِهِ ساعةً ثم رَقدَ، فلمَّا كان ثُلثُ الليلِ الآخرِ قعَدَ فنظر إلى

(١) نفس المصدر (٤/ ٤٢٤).

(٢) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص٨٦).

السماءِ فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران]، ثمَّ قَامَ فتوضَّأ واستَنَّ [١] فصلَّى إحْدَى عشرةَ ركعةً ثم أذَّنَ بلالٌ فصلَّى ركعتين ثم خرج فصلَّى الصُّبْحَ»[٢].

• عن حذيفة رضي الله عنه قال: صليْتُ مع النبي ﷺ ذَاتَ ليلةٍ. فافتتَحَ البقرة. فقُلتُ [٣]: يركَعُ عِنْدَ المئةِ، ثم مَضَى. فقلتُ: يُصلِّي بها في ركعةٍ. فمضى. فقلتُ: يَركعُ بها. ثُمَّ افتتَحَ النساءَ فقرأها. ثم افتتَحَ آل عمرانَ فقَرَأَهَا. يقرأُ مُتَرَسِّلًا. إذا مرَّ بآيةٍ فيها تَسبيحٌ سَبَّحَ. وإذا مَرَّ بسُؤَالٍ سَأَلَ. وإذا مَرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ. ثم ركَعَ فَجعَلَ يقولُ: «**سُبحانَ ربِّيَ العظيم**»، فكان ركوعُهُ نحوًا من قيامِهِ ثم قال: «**سَمِعَ الله لمن حمدَهُ**»، ثم قام طَويلًا قريبًا مما رَكَعَ. ثمَّ سَجَدَ فقال: «**سُبْحَانَ ربِّيَ الأعلَى**» فكان سُجُودُهُ قريبًا من قيَامِه».

قال وفي حديثِ جَرِيرٍ من الزِّيادَةِ: فقال: «**سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ. ربَّنا لك الحمدُ**»[٤].

• عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**اقرأْ عليَّ القُرآنَ**» قال: فقلتُ: يا رسولَ الله، أَقرَأُ عليك وعليك أُنزِلَ؟ قال: «**إنِّي أَشْتَهِي أن أسمَعَهُ من غَيْرِي**». فقرأْتُ النساءَ حتَّى إذا بَلَغْتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء] رَفعتُ رأسِي أو غَمَرَنِي رَجُلٌ إلى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرأيت دُمُوعَهُ

---

(١) اسْتَنَّ: أي استعمل السواك.

(٢) البخاري «الفتح» (٤٥٦٩)، ومسلم (٧٦٣).

(٣) فقلت: أي في نفسي، يعني ظننت أنه يركع عند مئة آية.

(٤) مسلم (٧٧٢).

تَسِيلُ»(١).

النبيِّ ﷺ أنَّهَا قالت للنبيِّ ﷺ: هلْ أَتَى عليكَ يومٌ كان أَشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ قال: **«لقدْ لَقِيتُ من قَوْمِكِ ما لَقِيتُ، وكان أَشَدَّ ما لَقِيتُ منهم يومَ العَقَبَة، إذ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابن عبد ياليل بن عبدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْني إلى ما أَرَدْتُ، فانطلقتُ وأَنَا مَهْمُومٌ على وَجْهِي، فلم أَستَفِق إلَّا وأنا بِقَرْنِ الثعَالبِ[٢] فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإذا أَنا بَسَحابةٍ قد أَظَلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جِبرِيلُ، فنَادَاني، فقال: إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَومكَ لك وما رَدُّوا عليك وقَدْ بعثَ اللهُ إليكَ مَلكَ الجبالِ لتأمُرَهُ بما شئْتَ فيهم. فنَادَاني مَلَكُ الجبَالِ فسَلَّمَ عليَّ ثمَّ قال: يا مُحَمَّدُ فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الأَخشبينِ»[٣]** فقال النبيُّ ﷺ: **«بلْ أَرْجُو أن يُخرجَ الله من أَصلابِهِم من يَعْبُدُ الله لا يُشرِكُ به شيئًا»(٤).**

---

(١) البخاري «الفتح» (٨/ ٤٥٨٢)، مسلم (٨٠٠) واللفظ له.

(٢) قرن الثعالب: مكان قريب من مكة.

(٣) الأخشبين: جبلان بمكة. قال ابن الأثير: الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة، وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان (موضع بمكة أيضًا) والأخشب كل جبل خشن غليظ الحجارة «النهاية» (٢/ ٣٢).

(٤) البخاري «الفتح» (٦/ ٣٢٣١) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٥).